سياسة التربية والتعليم في الخارج

من محاضرة عامة للدكتور مظهر سعيد

استاذ علم النفس بمعهد التربية وكلية اصول الدين
القاها بمنتدى جامعة القاهرة الامريكية

لو قيس حظ المشتغل بالعلم والشؤون العامة في مصر بما يناله من تشجيع جمهرة المثقفين من جهة ونقد الناقدين ومنافسة المتنافسين من جهة أخرى لكنت أسعد الناس حظاً واكثرهم توفيقاً

ولقد ارتفع هذا الصوت الضعيف بينكم في العام الماضي مدافعاً عن الطفل المسكين بسطاً قضيته الرأي العام فوجدت من حسن تشجيعكم لي قوة ساعدتني على المضي في سبيلي ومن روحكم الطيبة روحاً قوتي على الدفاع عن الحق . ولكم كان بودي أن أعيد الكرة هذا العام لولا أن صديقي الرئيس الجالس على يميني أبى إلا أن يخرجني من دائرة الطفل الضيقة إلى دائرة المجتمع الواسع دائرة التربية والتعليم العام. ورغم من علمي بما يلابس هذا الموضوع الواسع المتشعب الأطراف من جفاف شأن كل الموضوعات العلمية لم أتردد في قبوله وسأحاول أن أبسطه لحضراتكم بما يتفق مع جفافه وجلاله. وقد رأيت أن أقدم الموضوع لحضراتكم باستعراض بسيط لسياسة التربية ونظم التعليم في مختلف البلدان لا لنتبعها كما هي ونطبقها بحذافيرها وإنما لندرس ما فيها من ضعف نتركه وشأنه وحسن نقتبسه بعد أن نعدله تعديلاً يلائم حالنا ويجعله صالحاً لبلادنا

ونحن أيها السادة عند بحثنا للمسائل العامة والموضوعات العلمية ننقسم عادة إلى فريقين فريق المجددين لكل ما هو جديد المتحفزين للأخذ بكل غربي وهدم كل قديم والخروج على التقاليد طفرة واحدة ، الذين يجهلون أن لكل بلد عادات وتقاليد تجعل تطبيق كل جديد كما هو مستحيلاً — وفريق الجامدين المتعصبين الذين لا يرون في الجديد منفعة ولا خيراً مهما عظم شأنه وكبرت قيمته . يتقدم العالم بخطى واسعة إلى الأمام وهم يسيرون ورؤوسهم إلى الوراء لا ترى في العالم شيئاً غير الهياكل المخربة والآثار للهدمة والجثث المحفوظة في دور الآثار. فإلى الأولين اقول تريثوا وإلى الآخرين أقول تقدموا وإليهم جميعاً أقول لندرس أحوال العالم لتكون لنا هذه الدراسة مصباحاً نستضيء به ونموذجاً نسير عليه ولنأخذ بكل ما هو حسن

لم يكن للتربية في كل عصور الانسانية وأدوار المدنية منذ أن عرف الانسان معنى التربية نظام خاص يصح أن يسمى سياسة . على الرغم من النظم المختلفة التي كانت ترمي الى تربية فريق من الناس أو طبقة من طبقات الأمة تربية خاصة من نظام اسبرطة في عهد اليونان إلى نظام

التربية الألمانية أيام حكومة القيصر . وبالرغم من نظريات التربية ذاتها وآراء الفلاسفة وعلماء الاجتماع أمثال روسو وبستالوتزي وكومينيوس وفروبل — فقد كان العامل والصانع يعلّم ابنهُ أصول الصناعة وسر المهنة ويوجههُ في الطريق الذي يختاره لهُ . وكذلك كان أبناء الأشراف يتعلمون القروسية والأدب الذي ينبغي أن يتحلوا بهِ كأبناء أشراف في مدارس حرة تعلم من تشاء ما تشاء بغير نظام — نعم لم تكن هناك سياسة عامة محدودة بتشريع خاص تسنهُ الدولة وتضبط أصولهُ وترسمهُ كما ترسم سياستها الحربية والمالية والسياسية — وانجلترا ذاتها لم تكن لها سياسة عامة للتربية قبل القرن التاسع عشر . فقد صدر أول قانون برلماني بتنظيم التعليم الابتدائي وتعميمهِ على أسس ثابتة سنة ١٨٧٦ . أما التعليم الثانوي فقد صدر بهِ تشريع سنة ١٩٠٢ ولم يكن هناك قبل ذلك التاريخ سوى بضع مدارس قديمة لأولاد الأشراف مثل هارو وايتون لا تعنى بغير حشو أدمغة التلاميذ باللغة اليونانية والشعر اللاتيني وآداب المائدة وحمل السلاح والصيد والقنص وكل ما يجعل التلميذ «جنتلمانا» قبل أن يكون عاملاً نافعاً يكسب قوتهُ بعرق جبينهِ . نعم صدر أول تشريع لتنظيم التعليم الثانوي سنة ١٩٠٢ أي حوالي الوقت الذي قامهِ التعليم الثانوي في مصر ولكن شتان بين ما وصل إليهِ هناك وبين ما انحط إليهِ هنا . فهناك يخرج شباناً نافعين لأنفسهم ولبلادهم يعرفون دخائل الحياة الجدية حياة العمل الصالح المثمر . أما هنا فيقتل ذكاء الشاب ويقبر عقله ويضطرب فكرهُ ويمتلىء ذهنهُ بالأمور النظرية التافهة التي لا تغني ولا تثمر في حياتهِ المقبلة

وأراني مضطراً للاكثار من الاقتباس وضرب الامثال من النظم الانجليزية لا لأنها في نظري أفضل من غيرها . ولكن لأن انجلترا قد استطاعت في ربع قرن من الزمان أن تتغلب على جمود رجال الدين وأهواء السياسيين واعتراضات الاقتصاديين فاخرجت للعالم نظاماً ديموقراطياً يتساوى فيهِ — كما يقول كروازيه الفرنسي ابن الامير مع ابن الحقير — ذلك لأن التشريع هناك لا تقوم بهِ هيئة وزارية معينة وإنما هو هيئات تختلف من حيث مميزاتها وتتحد من حيث العمل وتعمل مستقلة بعيدة عن الاهواء السياسية والنزعات الحزبية ولا تتأثر برأي فيلسوف ولا عالم ولا وزير وتدرس ما يوكل إليها من الموضوعات في ضوء الحقيقة وحدها ثم تتعاون جميعها لتحقيق غرضها الأسمى . ولنتناول الآن العوامل التي ساعدتهم على وضع تشريع صحيح وسياسة قويمة

أولاً : من الذي يضع سياسة التعليم ؟ قد تدهشون اذا قلت لكم أن الطفل الصغير يؤخذ رأيهُ في السياسة التي ستفرض عليهِ في تربيتهِ وتعليمهِ . ذلك لأن علماء النفس يعتبرون رأيهُ ويداقمون عنهُ لانهم أدرى بنفسيتهِ ومزاجهِ . وهؤلاء لهم الرأي الأعلى — لان الرجل العادي كما يقول زعيم رجال التربية الميرجون آدمس معهم أولى من رجاحة العقل وقوة الملاحظة ودقة التفكير لا يعرف حاجات طفلهِ ولا ما يوافق نفسيتهُ ومزاجهُ وكل ما يستطيع أن يفعلهُ هو

أن يفرض عليه نظاماً لا يصلح لهُ وإنما يصلح لمخلوق غريب لهُ جسم طفل وعقل رجل

ويلي هؤلاء آباء التلاميذ أنفسهم لان سياسة التربية سوف تفرض على أولادهم وهم لجأ أو اتحاد يعبر عن آرائهم ويلزم البرلمان بالخضوع لها والاستماع لمشورتها وإنهُ ليسرني سيداتي المصريات ان أقول ان اتحاد الآباء في انجلترا لم يؤسسهُ رجل من كبار رجالاتها ولا زعيم من عظماء زعمائها وإنما أسستهُ سيدة هي الآنسة شارلوت ماسون . وكذلك يشترك المدرس في التشريع . ذلك المدرس المسكين الذي ينظر اليهِ في بلادنا نظرتنا إلى الآلة تقوم بما يفرض عليها من عمل من غير أن يكون لها رأي يحترم أو فكرة تقدر . أما في انجلترا فكل مدرس عظم مركزه أو صغر كبر مرتبهُ أو ضؤل عضو في اتحاد المدرسين وهذا الاتحاد يدافع عن حقوقهم فلا يسمح لكائن من كان أن يمارس المهنة بغير إجازة والكل في نظره سواء . فالمدرس لهُ رأي في سياسة التعليم ولا يطالب بتنفيذ ما يملى عليهِ تنفيذاً أعمى

وهناك لجان استشارية تضم أرباب الأعمال وأصحاب المتاجر والمصانع الكبيرة يؤخذ رأيها في كل نظام جديد قبل إدخاله لان الظروف الاقتصادية والاحوال الصناعية تتحكم حتماً في سياسة التعليم . وإلى هؤلاء يرجع الفضل في نشر المدارس الصناعية في مناطق الانتاج والتجارية في مناطق التوزيع . وهم كذلك يحددون مبلغ حاجة كل فرع من فروع الحياة العامة الى المتعلمين بحيث لا يكون في البلاد يوماً ما عدد كبير يزيد عن الحاجة في أية مهنة أو صناعة . وفوق هذه اللجان لجان الوزارة الاستشارية ولجنة رئيس الوزراء ثم اللجان البرلمانية وهي تتألف عادة من كبار رجال التربية والاعمال الذين يوثق بكفاءتهم ويطمئن إلى تشريعهم لان طائفة كبيرة من رجال البرلمان هناك يصلون الى كراسي النيابة من كراسي الجامعات ومعامل العلم ودور الصناعة ولذلك لا يخلو برلمان واحد في انجلترا من خمسة عشر عالماً من علماء التربية وللجامعات خمسة كراسي خاصة بها . وهذه اللجنة تقرر آراء سائر اللجان فلا يجتمع اعضاؤها وفي أيديهم أقلام حمراء عرضها عرض السموات والارض يشطبون بها ما لا يوافقهم ويستبدلونها بما يشاؤون وإنما يوفقون بين مختلف الآراء وبعدئذٍ يصدر المرسوم . ولا يفهم من هذا النظام الدقيق الذي يبدو جامداً لا يفلت منهُ إنسان أن السياسة العامة ستكون حتماً متناهية في الدقة الى درجة الجمود فهي على العكس مرنة ، والمشرعون يقدرون ما يعترضهم من الصعوبات وما يمكن أن يحصل من التعديل في المستقبل . ففي سنة ١٨٥٢ صاح ماتيو آرنلد صيحتهُ الهائلة ونادى بان التعليم في المدارس الثانوية القديمة عن طريق الكتب وحدها يفصل بين المتعلم والحياة العملية ومن ثم وجب على الحكومة أن تقضي على هذه المدارس او تضع تشريعاً جديداً يجعل برامج التعليم مرنة مرونة تجعلها صالحة لكل متعلم وأن تخفف المنهج وتكثر من الاختيار في المواد حتى لا يرهق المتعلم . فاسرعت مقاطعة وست ريدنغ الى إدخال الكثير من

التعديل في مدارسها حتى اصبح للمدرسة الواحدة منهجان او ثلاثة وقسمت العلوم الى مجاميع يختار التلميذ منها ما يوافقهُ ويتفق واستعداده . وانتشرت الفكرة وأخذت ولايات كثيرة بها واخيراً صدر التشريع بإنشاء المدارس المتوسطة التي تمتاز على المدارس الثانوية القديمة بمرونتها. ورددت الامم المتمدنة صدى هذه الصيحة فأدخلت النمسا تعديل اوركيرش وايطاليا تعديل لمباردو راديش واصبحت البرامج مرنة يرتاح اليها كل طالب . أما أمريكا فقد بذّتهم جميعاً في مرونتها سعياً في تحقيق فكرة الرئيس إليوت في أن تعطي التربية للاميركيين حرية لم يعرف العالم لها مثيلاً من قبل. ووضعت جامعات كثيرة درجات لكل علم وما على الطالب إلا أن يختار من مجموعة العلوم الماثلين او تزيد مجموعة توافق رغباته بحيث يكون مجموع نقطها الرقم المطلوب

أما هنا فالتلميذ مطالب بتحصيل العلوم جميعها وقد يفشل المرة بعد المرة في امتحان عام ويضيع مستقبله لرسوبه في الخط كأنهُ قدر لكل الناس ان يكونوا خطاطين او يفشل لسقوطه في الالعاب الرياضية . وهم كذلك حريصون على التريث في إدخال كل نظام جديد فلا يغيرون المنهج في سبتمبر ثم يعيدونهُ في اكتوبر فيحار المدرس في توفير لانهُ لا يعرف ماسوف يدرسهُ في ديسمبر. فهم قبل إقرارهم لمشروع جديد يجربونهُ في مدرسة او عدد من المدارس فاذا صلح وظهرت نتائجه بعد ثلاث سنوات إلى خمس طبقوه بالتدريج في جميع المدارس وقد أشارت اللجنة الوزارية الاستشارية سنة ١٩٢٥ بأن يستثنى من نظام التعليم العام عدد من المدارس في كل مقاطعة تسمى مدارس التجارب فهم مثلاً لما رأوا فساد نظام النقل من فرقة إلى فرقة أخرى كل عام لصعوبة اعادة التلميذ الراسب المقرر كلهُ بعد أن اهمل شأنهُ عاماً كاملاً فيرسب عاماً بعد عام وينتهي به الامر الى الطرد من ذلك النوع من التعليم بعد ان يضيع من عمره جانب كبير ويصبح عضواً عاطلاً اشل في جسم المجتمع فكروا في ادخال نظام النقل كل ثلاثة اشهر من ثلث المقرر الى الثلث الآخر فمن رسب في ثلث المقرر ثلاث دفعات متتالية حول الى نوع آخر من التعليم ولم يضع عليه من عمره إلا عام واحد . ولكنهم لم يبادروا الى ادخال هذا النظام المعقول دفعة واحدة وانما جربوه في اربع مدارس من مدارس بلدية لندرة خمس سنوات ونجح نجاحاً باهراً وهم آخذون الآن في تعميمه

ثانياً — ما هي التربية وما هو الغرض منها ؟

الجواب عن هذا السؤال يحتم علي استعراض تاريخ التربية من قديم الزمان وبيان الاختلاف بين وجهات نظر العلماء والمربين من حيث اغراض التربية في كل عصر . ولكن لن ارهقكم وارهق نفسي معكم بالخوض في هذا الموضوع الواسع فأكتفي ببيان احدث الآراء — ذلك لان آراء العلماء القدماء كانت مبنية على مشاهداتهم وقوة تفكيرهم وهذه كلها لا تصلح لاستخلاص نتائج عامة يصح ان تطبق على كل انسان في كل زمان ومكان. فتعريف هاملتون الذي

يقول بأن الغرض من التربية اعداد الفرد لأن يكون مهندساً ماهراً او طبيباً حاذقاً او معلماً قديراً ثم بعدئذ يتعلم كيف يكون انساناً مهذباً راقياً، يتناسى الناحية الانسانية . وتعريف جماعة الانسانيين بأن التربية تجعل الفرد انساناً مهذباً اذا شخصية قوية تجذب اليها النفوس وتحبب فيها الناس ثم بعدئذ يتعلم كيف يكسب قوته بعرق جبينه عن طريق العمل المادي ، يتناسى الناحية المادية . وقول جماعة التعميين الذين يرون ان يندفع المتعلم في تيار الحياة العملية دفعة واحدة من غير حاجة الى مدارس فيكون صانعاً او عاملاً لا يعرف الا كل ما يتصل بحياته العملية اتصالا مباشراً ثم بعدئذ يصير انساناً مهذباً متعلماً، يتناسى ناحيتي الثقافة والانسانية معاً . هذا كله كلام قديم لا يتمشى مع روح العصر الحاضر ونتائج المباحث العلمية

اما النزعة الحديثة فتخالف كل هذا . ولاجل ان نفهمها على حقيقتها يجب ان ندرسها في جو صاف هادىء بعد ان نتجرد من نزعاتنا وتأثير النظام الذي نشأنا عليه وألفناه فأصبحنا نعتقد انهُ صالح لكل زمان ومكان ما دام قد صلح لنا من قبل . وقديماً كان ضيق النظر والتأثر بالمألوف سبباً في فشل مشروع «شاتلورث» القائل بادخال العلوم العملية والاشغال اليدوية في المدارس كلها لأن اعضاء لجان التشريع وقتئذ كانوا من العلماء خريجي الجامعات الذين لم يألفوا غير نظام دراسة العلوم والآداب . فالنزعة الحديثة ترمي الى الديمقراطية في التعليم والحرية في النظام — كلمات خلابة تجذب انظار الناس اليها فتعميهم عن تفهم حقيقتها — اي شيء نعني بالحرية ؟ — اهي ان يفعل الانسان كل ما يريده ، كما يقول عامة الناس — كلا ؟ فهذه هي الفوضى بعينها . اذ ليس هناك شيء اسمهُ الحرية المطلقة — ام هي كما يقول متشكيو: ان يفعل الانسان بمحض ارادته ما يجب عليهِ فعله ؟ فمن الذي يحدد الواجب للتلميذ الصغير ؟ ان كان ابوه او معلمه وهؤلاء كما قلنا لا يرون بعيني الطفل ، فأين هي الحرية ؟ وان كان الطفل بذاته . فهو لا يدري ما يجب وما لا يجب فعله ؟ ام هي على رأي روسو السلبي ان لا يرغم الانسان على فعل شيء لا يريده هو . هذا حق . فالحرية في التعليم هي ان لا يرغم التلميذ على فعل شيء لا يريده او تعلم علم لا يميل اليهِ . لان في ارغامه قتلا لمواهبه وتحريفاً لميوله وخلقاً لروح الثورة ضد الحياة والنظم القائمة في نفسه — الحرية هي ان يربي الطفل نفسه بنفسه — او كما يقول دكرولي — بالحياة للحياة ذاتها . وفي هذا يقول الدكتور سيريل نوروود — اننا بارغامنا الطفل على فعل ما لا يريده نسيء اليه فنجعله آلة جامدة او عضواً مشلولاً او ثائراً متمرداً . هذه هي نزعة المدرسة الحديثة مدرسة منتسوري ولوزنز تو في ايطاليا ودكرولي في سويسرا وبلجيكا وهربارت — زيلر في المانيا وأودفوالت في النمسا ودالتون في انكلترا وأميركا. كل هذه المدارس مهما اختلفت طرائقها وتعددت نظمها ما هي الا صور متعددة للمدرسة الحديثة — مدرسة الحياة — وليست المدرسة الحديثة بناء يضم افراداً يتعلمون بها بطريقة مخصوصة ونظام

موضوع ولا طريقة خاصة للتدريس وإنما هي فكرة سامية تتلخص في الاحتكاك بين الطفل والمجتمع ؛ بين التفكير الفردي والتفكير العام — وموادها التي تدرسها الحقيقة والذوق السليم — هي فكرة تخدم الحقيقة وليس لها من غرض سوى مصلحة الطفل وتنمية قواه النفسية . لا قواه العقلية وحدها . المدرسة التي تخرج على نظام المواعيد المقررة ونظام التعليم الجمعي وشبكة الامتحانات . هي كما يقول أدامز . كيفما كان نوعها ديموقراطيًا أو ارستقراطيًا ترمي الى اظهار شخصية الفرد الحقيقية — وانها لن تصل بالتعليم الى طريق الكمال الا اذا هدمت الحواجز التي تقام بينهُ وبين الحياة العملية . ولذلك ترمي النزعة الحديثة الى التحرير بأوسع معانيهِ . بمعنى أن يهيأ لكل فرد في المجتمع فرصة عادلة تمكنهُ من تعلم ما يريد وما يتجه اليهِ باستعداده وينتفع بمواهبهِ فتسعد حياتهُ ويسعد الناس معهُ

هذه النزعة ستقضي بالتدريج على المدارس النظرية التي نعرفها . وتستبدلها بمدارس متوسطة مرنة . وقد كانت نسبة تلاميذ هذه المدارس الى مجموع التلاميذ في كل انواع التعليم الثانوي (بعد الابتدائي) في انجلترا ٣ ٪ فقط ولكنها تزداد بالتدريج عاماً بعد عام . وهاهي مقاطعة نوتنجهام ترسل الآن كل عام ١٠ ٪ من خريجي المدارس الابتدائية الى المدارس الثانوية النظرية و ٤٠ ٪ الى المدارس المتوسطة . وهذا دليل كاف على ان هذه المدارس اكثر ملاءمة لابناء الطبقات الوسطى والفقيرة الذين يجب ان توضع سياسة التعليم لفائدتهم لا لابناء الاشراف والاغنياء

ثالثاً : مراعاة الاحوال الاقتصادية للبلاد — لان علماء التربية ينشدون مثلاً عليا للتربية قد يستحيل تطبيقها أو قد يتعذر اخراجها الى حيز العمل لكثرة ما تتطلبهُ من النفقات او غير ذلك مما يعترض السبيل من العقبات — فراعاة الاحوال الاقتصادية والمالية تخفف من غلوائهم في مطالبهم . ومما يجب ملاحظته ان سياسة التعليم كيفما كانت ترسم ليتم تنفيذها في عدة اعوام قد تبلغ العشرة احياناً لا في عام أو في شهر واحد . فهم عند التشريع الآن لا يغيب المستقبل عن نظرهم . فلا تفتح كل ابواب التعليم على مصاريعها بحيث يخشى من كثرة العاطلين في ناحية معينة يوماً ما . فاذا رأى المشرعون ان مهنة معينة ستكون مكتظة بمن يزيد عن الحاجة يوماً ما لجأوا الى اقفال هذا النوع من المدارس ليخف الضغط عن تلك المهنة في المستقبل كما فعلت ايطاليا أو تركوها كما هي لمن لا ينفع استعداده الطبيعي في غيرها وانما شجعوا غيرها بمختلف الوسائل حتى يكثر الاقبال عليها

كذلك ينظر المشرعون الى سياسة التعليم جملة واحدة كوحدة مرتبطة الاجزاء بحيث تسير المناهج جنباً لجنب ولا تكون هناك حدود فاصلة بين طبقات التعليم . فلا يوضع برنامج التعليم الابتدائي على حدة ثم يترك على الرف ويشرع في فحص برنامج التعليم الثانوي ويهمل كذلك حتى يهيء الله له من يبعث بهِ من مرقده . في وقت يكون العلم الحديث قد سبق ما فيهِ بمراحل

«البقية في باب الاخبار العلمية»